على هامش الفلسفة

مرجع الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

تتمة البحث

وأينا فى الكلمة الأخيرة أن الأستاذ العلامة ليفى برُهْل Levy-Bruhl يرى فى كتابه « الأخلاق وعلم العادات La morale et la science des mœurs » أن الأخلاق ترجع أولاً إلى علم العادات الذى مرجعه استقراء التاريخ وملاحظة الحاضر، ثم يتداخل فيها النظر العقلى لتعديل ما يجب تعديله من الظواهر الأخلاقية والاجتماعية . هذا هو ملخص ما يدعو إليه . فما الرأى فيه ؟

لا ريب أن هناك فائدة كبيرة من علم العادات الذى يشير باستيحائه . لأن النظريات والأفكار الأخلاقية التى تعاقبت على الزمن هى وليدة المجتمعات ، وإذاً ليكن من الواجب دراستها أولاً بالعقل العلمى الدقيق . ولكن لا ينبغى أن نستنتج من هذا أن علم العادات يختلط من الناحية العميقة بالأخلاق بحال من الأحوال

يقفنا التاريخ على أن كثيراً من أرباب الضمائر العالية عورضوا فى أيامهم بآراء أخلاقية تقليدية كانت ضد مثلهم العليا ، إلا أن المستقبل كان يحكم دائماً لهم ، وإذاً تكون ضمائرهم الشخصية سبقت الضمير الاجتماعى المستقبل وأعدته لما أرادوا له ، وإذاً يكون من الممكن والواقع أن الخلقية تقوم على قتال النظريات الأخلاقية والعادات الاجتماعية التى توجد فى زمنها . ها هى ذى أخلاق « بوذا » لم تكن متفقة مع عادات الهند البرهمية فى القرن السادس قبل الميلاد ، كما لا تتفق الأخلاق التى جاء بها أنبياء بنى إسرائيل وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام مع عادات الأمم والشعوب التى بعثوا فيها ولها .

لا يقول لنا علم العادات كيف نختار عند ما تتعارض المثل العليا للتورات الأخلاقية مع الآراء والحقائق الاجتماعية التى توجد معها ؛ لننظر مثلاً للحرب ، نجدها تكشف حقيقة اجتماعية لا شك فيها ؛ هى تسيطر العواطف والشاعر الحربية على جميع الشعوب ، ومع ذلك لا يرضى أحد أن يرفض مثالاً أعلى هو السلام العالمى متى وجد لذلك سبيلاً . وبعبارة أخرى إن تحقق أية حقيقة ولو اجتماعية لا يلزم المرء بالانحناء أمامها واعتبارها مبدأ أخلاقياً جديراً بالتقدير

وبعد فعلم الاجتماع وعلم العادات من العلوم التى لها قيمتها وجدواها ، ولكنهما لا يحلان محل الأخلاق التى تقدر الأعمال وتضع لها قواعد للسير عليها . الاستقراء المطبق على تجارب التاريخ يعطينا حقيقة ما كان فى الماضى وما هو كائن الآن لا ما يجب أن يكون . ذلك أن دراسة ماضى مسألة من المسائل من الوجهة التاريخية كمركز المرأة وحقوقها مثلاً مثلاً مثلاً الوقوف على ما كان خاصاً بذلك من نظريات مما يجعل الدارس أكثر صلاحية من غيره لمعرفة ما إذا كان من الخير الاحتفاظ بالحالة الراهنة فيها أو تناولها بالتعديل قليلاً أو كثيراً ؛ لكن هذه المعلومات التاريخية والاجتماعية التى أمدتنا بها البحث لا تكفى وحدها لفرض حلّ حازم سواء أكان حلا محافظاً أم معدلاً أم ثائراً . هذا حق لا شبهة فيه ؛ إذ كيف يمكن تاريخياً معرفة ما يمكن أن يكون فى المستقبل ! أكبر دروس الماضى أنه مضى لطيته ، وأن الحاضر يجب أن يتبعه أيضاً . والأخلاق لا يكفيها هذا بل تسعى كما قلنا لمعرفة ما يجب أن يكون .

وأخيراً ، إذا كنا لم نرتض نظرية من النظريات السابقة التى تواردت بشأن الطريقة التى تتبع لتعرف القانون والمثل الأعلى الأخلاق ، فما هو إذا الحل الذى نرضاه ؟ هذا الحل هو ختام هذا البحث الذى قد طال وقوفنا عنده

التجربة الأخلاقية[1]

ليست الحياة الأخلاقية إلا مجموع أعمال نفسية واجتماعية خاصة ، فمن الممكن أن نقول بتطبيق الطريقة الاستقرائية عليها ، ولكن على نحو آخر غير الذى رآه الأستاذ « ليفى برُهْل » . والعقل العلمى لا يتطلب منا أن نلتزم فى كل موضوعات البحث طريقة واحدة ، إذ يتطلب فقط أن يلائم المرء بين موضوع البحث وطريقته ، وأن يعنى الأخلاق بأن يقارب بالقدر الممكن بين

(١) من المراجع الهامة فى هذا :

١ — التجربة الأخلاقية Rauh : L'Expériences morale

٢ — دراسات الأخلاق Etudes de morale

الطريقة التى ينتهجها فى الأخلاق والطريقة التى يستخدمها العالم فى العلوم التجريبية ؛ أى أن يصدر عن تجارب واسعة وصدر رحب وروح غير متحيزة لا تدع للخطأ سبيلاً. هكذا عالج العلامة «روه Rauh» موضوع طريقة الأخلاق فى مؤلفيه القيمين ، وهما : « التجربة الأخلاقية ، ودراسات الأخلاق »

يرى هذا البحاثة أن العالم يقبل كبداً لبحثه اكتشافات أسلافه وآراءهم كفروض على الأقل يأخذ فى بحثها وتمحيصها بكل ما يملك من وسائل . كذلك الأخلاقى يجب أن يبدأ بحثه من التقاليد فيمحصها ويزنها بما تمده به تجاربه الخاصة والحقائق الدينية التى لا ريب فيها والضمير القادر على الحكم الصحيح . بعض هذه الأفكار التقليدية توسع من قلوبنا وعقولنا ، وتبث فينا يقيناً شريفاً وسعادة نبيلة ، ونحن بعد تمحيصها لا يسعنا أن نضعها موضع الشك ، كما لا يشك العالم فى فروض عصها وظهر له صحتها

حقاً يجب السير مما اتفق عليه الأديان ثم من التقاليد ؛ فالحياة تولد من الحياة ، حياتنا الأخلاقية لم نبتدعها بل جاءتنا من حياة أسلافنا الأخلاقية إلى حدّ ما ، فمن الادعاء والعبث الذى لا معنى له أن يهمل باحث كل تجارب الإنسانية الأخلاقية . ومن الغباء أن يزعم أحد قدرته وحده على أن ينشىء أخلاقاً ، كما ليس فى مكنة أحد أن يبنى وحده علم الهندسة أو الطبيعة مثلاً .

لكن حذار أن تقتصر على تقاليد البيئة الأسرية أو القومية الخاصة . يجب أن يعنى الباحث الأخلاقى بتقاليد الأمة كلها فيجتهد فى تعرف أصولها فى زوايا الماضى البعيد والقريب وآثارها فى الحاضر ؛ ومن ثم يكون لعلم التاريخ فائدته وخطره وخاصة تاريخ الفلسفة والأديان. على أنه ليس للمرء أن يحدد نفسه باستشارة الكتاب ؛ عليه أن يخالط — مصغياً مستطلعاً باحثاً — المساجد والكنائس وسائر دور الدين بلا تمييز ، وألا ينسى المجتمعات المختلفة للأوساط الاجتماعية ، بعد هذا يجب أن يبحث ويقارن ويحقق ما جمعه بهذه الوسائل من الآراء والنظريات الأخلاقية المختلفة وأن يستخلص منها ما يكون متماثلاً ومشتركاً ، ويختار من بينها الأصلح حينما تتعارض حسب تجاربه وضميره وفكره المنزه عن الهوى

من رسائل الشرق

أبصرت اليوم من نافذة برجى « شهر يوليو » مقبلاً يخطى سريعة وهو متدثر برداء أحمر كأنه قطع اللهب ، وقد تسبب من جبينه العرق ، وهو يقرع باب برجى ويصيح :

— أيها النافل عن جسمه ، القابع بين جدران سجنه. انطلق قليلاً إلى نسيم البحار وهواء الجبال ، وأرح نفسك واستروح من نفسك !

فسمع الجواب من أعماق نفسى :

— وكيف يستريح من هذه النفس وهى تمتطى وجوده امتطاء ؟

— أو تذعن لهذا الفارس القاسى حتى يسحق المطية سحقاً ؟ !

فقالت النفس « لشهر يوليو » :

— أهى رحمة منك بالمطية أم أنك تريد أن تأخذها منى لنفسك أيها الشهر اللعين !

— إنها ستجد عندى الراحة والنسيم . وسأقدم لها « علفاً » من فاكهة الجبال الغضة وزهر الغابات الجميل ونسيم صيني العليل . . . أما أنت فماذا تجد عندك ؟ إنك لن تقدى إلى هذه المطية النحيلة غير « علف » من الحبر والورق والسهاد المضنى والعمل المرهق والتفكير الطويل !

— سأعطيها النور الذى يضيء لها السبيل !

— لا تخدعها بهذه الكلمات . ومع ذلك فإن عينيها فى حاجة كذلك إلى الراحة والبعد عن النور . أقصى عن وجهها شهراً واحداً ذلك المصباح الذى ترمها طول الشهور !

— إنها لا تستطيع السير خطوة بغير ذلك المصباح

— أقسم لك أن الزيت قد نفد من هذا المصباح . دعينى أذهب بها إلى حيث تملؤه من جديد زيتاً خالصاً نقياً ، يرسل الضوء وهاجاً قوياً ، لها وللآخرين من القراء والمريدين ، طول عامها القادم . . . آمين !

توفيق الحكيم

بعد هذا أيضاً يجب ألا يكتفى بتقاليد أمته وجنسه ، بل يكون واسع الأفق عالي البحث حتى يصل إلى مبادىء يمكن الحكم بصلاحيتها للجميع . والسياحة بما تهيئ لنا من فرصة تعرف تقاليد الأمم والشعوب المختلفة الدينية والاجتماعية فى مواطنها الخاصة يمكن أن تمدنا بهذا البحث الأخلاق الواسع الدقيق بمبادىء أخلاقية عامة لها قيمتها وخطرها . من أجل هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز — بعد ما ساح كثيراً بين أوربا وأمريكا وأقام أخيراً باليابان — مادمنا معاشر الأوربيين لم نعش إلا فى نصف الكرة ، فليس لنا إلا أنصاف أفكار وآراء[1] » .

وإذاً لكي نصل إلى مبادىء وأحكام صحيحة ، يجب أن نسائل هذا وذاك ، لا نخص بحثنا بأمة دون أمة ولا بجنس دون جنس ، ولا بعصر دون عصر . يجب أن نجمع شهادات كل الضمائر التى لها قيمتها ، وأن نبحث لنفهم نفسية الأفاضل والأبطال والحكماء ثم نعمل التحقيق غير المتميز فى كل هذا المجموع من الآراء الأخلاقية لنعد بذلك العقيدة الأخلاقية غير المغرضة على طريقة « المروحة » حسب تعبير « روه ـ Rauh » نفسه ، وإذاً يكون القانون والمثال الأعلى الأخلاق هو نقطة الانتهاء لطرق متعددة متنوعة .

هذه هى الطريقة العلمية المنتجة التى أرى أنه باتباعها نصل إلى تقرير حقائق أخلاقية صالحة لكل العقول ، وإلى تعرف المثل الأعلى الأخلاق الذى يقبل من كل الضمائر المستقيمة والإرادات الطيبة فى كل البيئات والعصور .

إلى هنا انتهيت مما أردت بحثه ، ولم يبق إلا أن أتوجه بالشكر لله تعالى ، وإلى حضرة الأستاذ الجليل صاحب « الرسالة » ، وحضرات القراء الذين تفضلوا بتشجيعى على جهد المقل برسائلهم وكلماتهم الطيبة . وأخص حضرة الباحث الجليل الأستاذ نصيف المنقبادى الذى لا أجدنى أهلاً للثناء الذى وجهه إلى بعدد «الرسالة» الغراء رقم ٣٠٣ فى ابتداء الكلمة القيمة التى بحث فيها غريزة الخير والشر من الناحية البيولوجية أى من ناحية أصلها ونشأتها وتطورها وذلك غير الناحية التى حاولت بحثها .

وإلى اللقاء بعد العودة من فرنسا إن شاء الله تعالى فى أول العام الدراسي الآتى .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

(١) Challaye : Philosophie scientifique et phl. morale
شالي : الفلسفة العلمية والفلسفة الأخلاقية

د . ه . لورنس

الأستاذ عبد الحميد حمدى

مقدمة

أمل ويأس : فى هاتين الكلمتين يتلخص تاريخ القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين . كانت تقوم الحركة تلو الحركة ، وفى كل مرة ينبعث الأمل ويظن الناس أن الحياة قد بعثت من جديد وأنهم صاروا قاب قوسين أو أدنى من السعادة الإنسانية ، ولكن سرعان ما تذوى الحركة وتموت ، فيتحول الأمل يأساً ، وينقلب النعيم بؤساً ، وتحل الحسرة محل السرور ، ويأخذ الألم مكان اللذة ، وبذلك تتم الحياة وتظلم أكثر من ذى قبل حتى لا تبشر بعد ذلك بخير

فى مستهل القرن التاسع عشر قامت الحركة الصناعية ، فهلل الناس وكبروا استفاقوا كأنهم من كابوس مريع . ولكن لم تلبث هذه الحركة أن خلفت أضعاف ما كان موجوداً من بؤس وشقاء ، فازدحمت المدن حتى ضاقت بسكانها وتوزعت الثروة ولكن توزيعاً غير عادل ؛ فكان من جراء ذلك أن مال الناس عن هذه الحركة وتعلقوا بأهداب حركة أخرى ناشئة هى الحركة العلمية التى قامت نتيجة للمستكشفات العلمية والمخترعات الحديثة ؛ فأقبل الناس فيها واستبشروا بها حتى صدمتهم الحقيقة المرة وتبينوا أن العلم قد يعطى الإنسان قوة فوق قوة ولكنه لا يهبه السعادة ولا الهناء

وعلى أثر يأس الناس من هذه الحركة ناصروا الحركة السياسية التى قامت تحت زعامة جلادستون أملاً فى أن الدعوة إلى الحرية وإلغاء الفوارق بين الطبقات والتخلص من امتيازات الطبقة العليا هى سبيل السعادة المنشودة . ولكن ما كاد عميد الحركة يقضى حتى قضت الحركة إلى جواره ، ثم أتت هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية فكانت ضغثاً على إبالة وكانت الضربة القاضية للحركة لأن فرنسا كانت نصيرة الحرية ورمزاً لها فى ذلك الوقت

وبهذه الطريقة يلقى الإنسان باليأس المرة بعد المرة حتى تضب معين أمله ، وزال عنه تفاؤله ، وصار لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار أسود ، بعد أن تبين له أنه إنما يحارب عدواً لا قبل له به ، وأنه قد كتبت عليه الهزيمة مهما قاتل ومهما استبسل . لذلك رأى